7

أعز الأصدقاء، ألد الأعداء

مسيرة في الجانب المظلم

كنت أتحدث إلى اثنتين من صديقاتي عندما تذكرت واحدة منهن أنها قد تعرضت للظلم من قبل أمها. بدأت بالاقتراح عليها أن الصورة الخبيثة التي في ذهنها عن أمها ربما لا تكون صحيحة. فقاطعتني الصديقة الثانية وقالت: «ربما هناك جانب من شخصية أمها لا يتمنى لها الخير». هنا توقف مسار كلامي، لقد كانت على صواب. كثير منا لا يفضل التفكير في أنه من الممكن للأمهات أذية بناتهن بالعمد. أو أنهن ربما لا يتمنون لبناتهن الخير. إن هناك جانباً مظلماً في العلاقة بين الأمهات والبنات. بالرغم من أنني حاولت طيلة كتابتي لهذا الكتاب أن أتفادى الوقوع في فخ وصف الأم بصفات خبث شيطانية، فأنا لا أود أن أقع في فخ وصفها بالرومانسية أيضاً. وإن فعلت هذا سيكون بمثابة إنكار تجارب حقيقة لكثير من النساء.

ولدت الممثلة لورا ديرن لأبوين ممثلين أيضاً، طلب منها في إحدى المقابلات وصف شعورها حول ظهورها مع أمها دايان لاد على شاشة التلفاز. أجابت ديرن بأن هذا يمنحهم الفرصة لتمثيل الجانبين من العلاقة. ففي فيلم «الوردة الهائمة» تلعب دايان دورا يدعى ببساطة «الأم» وقد كانت هي الوحيدة في الفيلم التي تفهمت الدور الذي لعبته لورا. هذه

الأم رأت أفضل الميزات في ابنتها وتقبلت نقاط ضعفها. لقد كانت الأم المثالية التي تتشوق لها الكثير من النساء بغض النظر إن كانت أمهاتهن الحقيقيات قد أشبعن هذا الشعور أم لا.

في فيلم آخر «القلب العاصف» فإن هناك مشهد تنظر فيه ديرن من خلال النافذة وترى ابنتها في دور ساحره تمتطي عصا سحرية. وهذا أيضاً شيءٌ تفهمه كثير من النساء. وكما عبرت عنه المذيعة دايان ريم في كتابها «البحث عن صوتي» قالت: «عندما كنت صغيرة كان صوت أمي يستطيع أن يملأني بالسعادة أو يجعلني أنكمش خوفاً». أهي الساحرة أم الحنونة؟ أهي التي تخفف من آلامنا أم هي المسببة لها؟ أم هي التي تسبب الاثنين معاً؟

إننا دائماً نميل إلى رؤية الخير والشر وكأنهما منفصلان بالأساس. وهذا غير صحيح، ولا تستطيع الأم أن تكون في خانة الخير دائمًا، هذا لا يحدث في الحياة الحقيقة. من خلال تعليق ماريا تاتار على حكاية «بياض الثلج» المقيتة قالت: «إنه بالرغم من أن تفاصيل هذه الحكاية اختلفت من جراء تناقل هذه التفاصيل لفظيًا عبر الثقافات المختلفة، فإن «اللب الراسخ» للقصة كان «الخلاف بين الأم وابنتها» وفي القصة كلنا نعرف أن بياض الثلج كانت قد تعرضت للتعذيب على يدي زوجة أبيها. لكن في نسخ كثيرة لهذه القصة كانت الملكة الشريرة هي الأم الحقيقة للبنت وليس زوجة الأب.

ولإعادة الروح الأصلية لهذه الحكاية وللتفكير في خبرات حياة البنات والأمهات الحقيقيات نحتاج أن نأخذ جولة قصيرة في الجانب المظلم.

«تثب من فوقنا وتلتهمنا»

في أيامنا هذه يستخدم الناس كلمة ساحرة لوصف امرأة ذات شخصية كريهة ـ أو شخصية غير محبوبة. لكن في التاريخ لم يكن استخدام كلمة ساحرة في الحوار استخداماً عادياً. فعندما كانت توصف امرأة بهذه العبارة كان هذا يعني التعذيب والشنق في الأيام القديمة. ذكرت إيفيلين فوكس كيلير في كتابها «الانعكاس بين الجنس والعلم». كلمات شخصية في مسرحية عرضت عام 1659م، ذكرت بالضبط السطور من المسرحية حتى توضح الخوف والهاجس من الساحرات والذي كان في وقتها مألوفًا: «أنت تمامًا كما الضبع تغوينا بجلدك الأشقر، ثم تقفزين من فوقنا وتلتهمينا».

هذا الاتهام هو الذي حدد بالضبط الدافع وراء الإيمان بالساحرات: خوف الرجال وتهويلهم لقوة النساء. وسأعيد صياغة المعنى: عندما يشعر الرجل بأنه منجذب جنسيًا لامرأة، فإنه يشعر بأن هذه المرأة تتحكم به. إنها تستطيع أن تجبره على عمل ما تأمره به. تستطيع أن تتسبب في تعاسته وتستطيع أن تستخدم هذه القوة لتدميره. وبالرغم من أن القوة الجنسية تختلف كثيراً عن قوة الأمومة، وعند فهمنا أن الخوف من الساحرات هو خوف من قوة المرأة يجعلنا نفهم غضبنا من أمهاتنا. إن التحكم الذي كن يملكنه في صغرنا كان ساحقًا، وما زلنا نشعر أننا مقيدون بقوتهن حتى بعدما كبرنا.قربنا الشديد من أمهاتنا يجعلنا نخشى من افتراسها لنا.

في بعض الأحيان يؤدي الحقد بين الأم وابنتها إلى الأذية والإساءة. وعندما تكبر البنت وتكون أمها ضعيفة جسديًا فإن هذا ممكن أن يتحول إلى إساءة معاملة الكبار. والإساءة الأكثر شهرة والتي تحدث كثيراً هي

تحكم الأم بعالم الطفلة الصغيرة. وكثير من النساء يقمن بتدوين هذه الإساءة في مذكراتهن، وربما أكثرها شهرة هي «العزيزة أمي» والتي كتبتها كريستينا كروفورد. إنه من السهل على أي شخص فهم أن الغضب الدائم ينتج من الهجوم الجسدي. لكن في كثير من الحالات فإن شخصًا من خارج العائلة لا يستطيع فهم عمق غضب البنت على أمها وهنا مثال من حياتي: لقد اعتقدت أمي أنه هناك مناسبة مهمة على وشك الحدوث، وأن عليها شراء فستان جديد. وقد كان من المستحيل بالنسبة لها أن يراها النسوة تحضر احتفالاً كهذا مرتدية فستاناً قديماً. وقد كنت مختلفة تمامًا عنها: فأنا لا أحب السوق وليس لدي الاهتمام الكبير بالملابس مثل أمي. أنا غالبًا مشغولة ولا أجد الوقت للتسوق. ولا أرى أي أذى في ارتداء الفستان نفسه أكثر من مرة إذا كان مناسبًا و في حالة جيدة. اختلاف وجهات النظر كان مصدر الخلاف الدائم بيننا. وكان هو أيضًا سبب الخلاف في السنة الأولى لوجودي في كاليفورنيا، حيث خططت أنا وأخواتي لعمل حفلة للاحتفال بعيد ذكرى زواج والديّ الستين. وقد شعرت بأني أقدر هذه الحفلة من خلال الترتيب لها والسفر لحضورها. لكن أمي كان لها رأي آخر، وقد بدأت أسئلتها قبل موعد الحفلة بأسبوع وما كنت قد اشتريت شيئاً جديداً لألبسه في الحفلة. وفي كل مرة كنت أعترف بأني إن لم أفعل كان يزداد غضبها. وقد امتصصت غضبها حتى وإن كنت لا أوافق على السبب. وفي يوم قمت بزيارة مجنونة لعدة أسواق كبيرة، وجربت عدداً لا يحصى من الفساتين، والفستان الوحيد الذي كان مقاسه مضبوط لم يعجبني. والذي أعجبني كان مقاسه غير مضبوطٍ. وفي اليوم التالي وصلت للمنزل وبحوزتي فساتين كثيرة وقد أردت أن أجربها أمام زوجي.

والذي أكد لي أن جميعها لا تناسبني، فخسرت وقتًا إضافيًا في محاولة إرجاعها. بدأت أشعر بالإحباط، وكنت قد التزمت بمواعيد للكتابة وكان علي إنجازها في وقتها. ولم أستطع إضاعة وقت إضافي في التجول في الأسواق. وكلما أمضيت وقتاً إضافياً في السوق أو في القلق من تخييب ظن أمي زاد غضبي. وقد كنت مقتنعة بأن طلبها غير منطقي، لكني لم أستطع إغضابها وإزعاجها. وقد شعرت تقريباً أن مجرى دمي سينقطع لو أني تخطيتها وهذه الورطة جعلتني أشعر كما لو كنت حيواناً مقيداً في زاوية. وأتذكر أني شعرت بأنه لن يكون هناك مفر إلا عند موت أمي واستعادة حريتي.

إن قول هذا الآن يجعلني أشعر بالعار والخجل. كنت قد تمنيت موت أمي لأنها أرادتني أن ألبس فستاناً جديداً في حفلتها!! إنه جنون. كيف لي أن أشعر بهذه الرغبة غير المفسرة؟ أعتقد الآن أن السبب كان في شعوري بأني مقيدة تماماً برغباتها، ولأني شعرت بأن هذه الرغبات لا معنى لها. كنت أيضاً ساخطة وتحت السخط كنت متألمة من أن أمي قد تجاهلت كل ترتيباتي وتعبي لحفل ذكرى زواجها، وركزت كل اهتمامها على الشيء الذي تود، والذي لم أفعل. (قد سمعت هذه الشكوى من الأمهات أيضاً، حيث تتجاهل البنات كل ما تفعله الأمهات وتركز على ما تريد فقط). وقد ناقشت هذه المشكلة مع صديقاتي (هذا النقاش هو من أنواع الحوارات التي تفتعل المشكلات لكنه يلقى التقدير من النساء رغم أنه محير بعض الشيء). وبمساعدة صديقاتي قررت أن أكون قوية وثابتة وأرفض طلبات أمي، وسأقوم بلبس فستان مناسب من خزانة ملابسي. وإذا كان هذا سيزعجها فهو ليس خطأي. واتخاذي لهذا القرار جعلني أشعر بالراحة. وفي آخر الأمر ذهبت لمحل ملابس قريب واشتريت فستاناً جديداً.

في هذا المثال استجبت تماماً لطلب أمي من أجل رضاها وتجنب غضبها، وفي النهاية إنها حفلتها ورضاها كان هو جوهر الموضوع. في موقف آخر لم استجب لطلبها وسأذكر هنا الموقف الذي تذكرته خلال كتابتي لهذا الكتاب.

بينما كنت أبحث في جهاز الحاسوب عن إحدى الملفات وجدت ملفا بعنوان؟ «أمي» وتوقعت أنه يحوي ملاحظات عن الموضوع ففتحته، وقد تفاجأت عندما وجدت رسالة كنت قد كتبتها لأمي في عام 1991م لكني لم أقم بإرسالها أبدًا. وبينما كنت أقرأ الرسالة وجدت أنني قمت بحفظها في الساعة الخامسة والنصف صباحًا، كان غضبي قد أبقاني مستيقظة. وقد استرجعت الحادثة لكن بدون استعادة المشاعر المشحونة. وكما هي الحال في الفستان فإنني لا أعرف السر واللغز الذي جعلني أغضب من موضوع صغير للغاية.

كنت قد أخذت إجازة لسنة من جامعة جورج تاون لقبولي عمل في جامعة برينستون. كان والداي في فلوريدا يقضيان فصل الشتاء. وقد أخبرتني أمي بحماس شديد أن صديقتها سوزان براون لديها ابن طبيب يعمل في جامعة برينستون، وأنها قد أخبرت صديقتها أنني سأقوم بمكالمة ولدها. وبينما كان الوقت يمضي على وجودي في برينستون لم أقم بعمل هذه المكالمة. لقد كان وقتي مشغولاً تماماً مع الأشخاص والجامعة، وقد كنت أنا وزوجي في زيارات ومقابلات مستمرة في قسمين من الجامعة. وزيادة كنت قد اعتبرت برينستون مكاناً أود الاختباء به لهذه السنة، وفي النهاية والسبب الأهم قد شعرت بالغباء من مكالمة شخص لا أعرفه. لم أشعر بأن هناك أي نقاط اهتمام مشتركة أو أن مكالمتي سيكون مرحبًا بها.

وفي كل مرة تحدثت مع أمي على الهاتف كانت تسألني ما إذا كنت قد اتصلت بابن صديقتها. وفي كل مرة كنت أجيبها بالنفي كانت تصر على اتصالي: «إن سوزان تستمر في سؤالي ما إذا كنت قد اتصلت بابنها أم لا. وإنه من المخجل أن أستمر في الإجابة بلا». وفي يوم قامت أمي بالإلحاح في طلبها وتذكيري بأنها لا تكثر من طلباتها علي ونصحتني بأن علي عمل هذه المكالمة من أجلها كمعروف. لم أستطع النوم تلك الليلة وفي صباح اليوم التالي قمت بكتابة هذه السطور: «لقد فتحت موضوع اتصالي بابن صديقتك على الأقل ست مرات. في أول مرة كان كلامك عبارة عن اقتراح، وفي المرة الثانية كان تذكيرًا، وفي الثالثة كان كالوكزة. وعندما تصلين للرابعة والخامسة فهذا يصبح إزعاجاً مستمراً. لقد وصلت البارحة إلى مستوى جديد من الابتزاز العاطفي وأنت تطلبين هذا كمعروف. مفسرة بأن هذا سوف يعني لك الكثير، وأنك لا تكثري الطلبات مني. إنه لشيء صاعق بالنسبة لي أنك تفضلين أن تتسببي لي بالألم من أن تخيبي ظن صديقتك سوزان. أنا لا أعرف من سوزان براون؟ ولماذا ومتى أصبحت بهذه الأهمية بالنسبة لك؟ لكني أعرف بأني ابنتك وأني قد تعديت مسافات طويلة من أجل رضاك».

إن الشيء المحير هنا وأنا أقرأ هذه الرسالة بعد أكثر من اثنتي عشرة سنة هو لماذا سبب طلب أمي لي هذا المقدار من الأسى. لماذا لم أصرف طلب أمي بدلاً من أن يجعله يقطعني؟ ربما تختلف الحال مع أم أخرى، ربما ستتوقف عن طلبها بعد إعادة الطلب أكثر من مرة، وربما لو كانت ابنة أخرى لاستجابت بكل بساطة لأمها. إن السبب في رفضي لفعل هذا كان بالضبط عكس ما ظنت أمي، فقد أخذت رفضي على أنه عدم اهتمام بمطالبها، لكن في الحقيقة فقد كنت اهتم للغاية.

إنه من الواضح من الرسالة التي كتبتها مبكراً ذاك الصباح أن أكثر ما أزعجني من طلب أمي هو توقعها من أنها تستطيع أن تقرر ما أفعل وتجبرني على فعله. واستخدامي للتعبير «الابتزاز العاطفي» في الرسالة غريب. فمعنى الابتزاز أنك تخشين من أن أحداً سيقوم بإيذائك إذا لم تلبي طلبه. لكن أمي لم تكن تهدد أي أحد، فلماذا استخدمت هذا التعبير إذاً؟ لأني شعرت بشعور بغيض جداً عندما علمت أني كنت السبب في قلق أمي، وأني فشلت في إرضائها.

بعد مدة علمت أن سوزان براون كانت أهم شخص في مجموعة أصدقاء جديدة، وكانت أمي تتمنى الانضمام إليهم.

تماماً كما كنت متلهفة لإرضاء صديقتي روزيلين التي دعتني إلى حفلة عيد ميلادها وأنا في الفصل السادس الابتدائي. ربما إنها المعرفة التي جعلتني الآن أعتقد أنه كان علي عمل المكالمة لإرضاء أمي. لكني في وقتها شعرت أنني لو خضعت لضغطها كنت سأفقد قطعة مني، أو كما لو أنها كانت تحاول ـ كما في كلمات والتر شارلتون ـ أن تثب من فوقي وتفترسني.

إذا اعتبرت إصرار أمي على أنه ابتزاز عاطفي فذلك لأن لطلباتها قوه كبير، فقد ظننت أن عنادي كان قد تسبب في جنون أمي لأنها تعتقد أن من حقها امتلاك القوة لإجباري على الاتصال بابن صديقتها. ومن الواضح أن صديقتها اعتقدت الاعتقاد نفسه. أو ربما أمي اعتقدت أنه من خلال التواصل الذي بيننا، فبما أنها هي تريد للمكالمة أن تتم فبالتأكيد أنا أريد الشيء نفسه. إنه من الصعب معرفة السبب، لأن التواصل والتحكم متشابكان بشكل كثير ويتبع بعضهم الآخر.

في كتاب «عدم إنسانية المرأة تجاه المرأة» كتبت فيليس شيسلير - وهي عالمة نفسية ورائدة في الدفاع عن النساء - أن التواصل يتحول إلى تحكم ويقوم بالتهام الغنيمة. ترجع العالمة الإحباط الذي بينها وبين أمها إلى رغبة أمها للتحكم بها فقالت: «مهما قدمت وفعلت حتى أحصل على حبها، فإنه دائماً غير كاف. لأنها كانت تريدني لنفسها، أنا، أن ألتحم معها، أن أكون كظلها، وأن تفترسني أيضاً». إن صفة التتابع تعكس الطريقة التي يهدد بها القرب: في «تريدني لنفسها» واستخدام أمها لها في: «ألتحم معها». إن هناك شخصيتين مختلفتين، ومع ذلك فإنهم يصبحون شخصية واحدة في: «أن أكون ظلها». تتلاشى شيسلير ووحدها أمها تستعيد القوة وفي: «أن تفترسني أيضاً» فإنها تتوقف لتحيي.

بالرغم من أن وصف شيسلير يبدو مبالغاً فيه وتقريباً خياليًا إلا أنه يعكس الخطر الكبير الذي تراه الكثير من النساء. عالمة نفسية أخرى جانيت ويتير قالت إنها صادفت نساءً يتعمدن وجود مسافة بينهن وبين أمهاتهن بالرغم من رغبتهن الشديدة في التقرب من أمهاتهن. لأنهن أيضاً يشعرن بأنه سيتم افتراسهن. نقلت الدكتورة ويتير جملة سمعتها من امرأة: «إن أمي تملك باباً خلفيا لرأسي.. يجب علي البقاء بعيدة لأنها تستطيع الدخول منه والتحكم بي».

حب الأم: من الجانبين

إذا كانت البنات تخشى في بعض الأحيان من افتراس أمهاتهن لهن فإن الأمهات يخشين أحياناً من الشيء نفسه. وهذا يؤدي بالأم إلى الخوف من أن تصبح وحشاً ورؤية أبنائها لذلك. تصف أدريني ريتش

بعض النزوات والمخاوف في كتابها، فهي تحدد «الأزمة النفسية لإنجاب الطفل الأول». والتي تنتج من «الشعور بالسلطة المضطربة والعجز، الشعور الغامر بفقدان السلطة في جهة ولمس الإمكانات النفسية والجسدية من جهة أخرى». ولتوضيح هذا التناقض نقلت ريتش كلمات من دفتر يوميات كتبته عندما كان أولادها صغاراً:

«إن أولادي يسببون لي أشد أنواع المعاناة التي لا خبرة لي فيها، إنها معاناة التناقض: التناوب القاتل بين الغيظ المرير والأعصاب المدمرة وبين الرضا المبارك والعطاء الحنون. وأحياناً أبدو إلى نفسي كما لو أنني وحش أناني وغير محتمل. أصواتهم تنهكني، رغباتهم المتواصلة، وفوق كل هذا حاجتهم إلى الصبر والبساطة. كل هذا يملؤني باليأس بسبب فشلي ونصيبي، مصيري بأن أخدم في وظيفة لست أهلاً لها. وأحياناً كثيرة أشعر بالتعب من كبت الغيظ الشديد. وأشعر بأن الموت وحده يستطيع تفريقنا عن بعضنا البعض».

وبقراءتي لهذا شعرت كما لو أنني قد برئت من أفكاري المخجلة وغير العاقلة بأن الموت وحده قادر على تحريري من أمي. وبعد خمس سنوات وفي دفتر يوميات مختلف تماماً وصفت ريتش مرة أخرى المعاناة «مع الطفل وضده».

قالت: «إن التعلق في موج من الحب والكره والغيرة حتى من طفولة الطفل، الأمل والخوف من نضجه ووصوله مرحلة الرشد. الشوق إلى الحرية من كل المسؤوليات العالقة بكل خيط من روحك».

فسرت ريتش بأن هذا الشعور الغامر والمتناقض هو نتيجة لكون الطفل جزءاً من النفس. وبمعنى آخر فإن الأم مدركة تماماً للتعبير «أنا أندمج» الذي أشارت له تشيسلير سابقًا.

إن التناقض الذي وصفته ريتش يتوازى مع التناقض الذي تشعر به البنات أيضًا، كلاهما تدركان بأنه أساس ومهدد للحياة. هو ملاك حارس وساحر شرير في الوقت نفسه.

تكتب ريتش عن غضبها المكبوت تجاه أطفالها الصغار. لكن هناك أمهات لا تكبت هذا الغضب. كانت الشاعرة آن سيكستون واحدة من هؤلاء، كانت امرأة غير متزنة نفسيًا لكن شاعرة بارعة في الوقت نفسه. وجدت أن العناية الشيطانية بأطفالها شيء لا تستطيع تحمله. ووفقًا للكاتبة دينا ميديلبروك والتي كتبت عن حياة آن الشاعرة فعندما كانت ابنة آن رضيعة كانت أمها تشعر بالشلل والقهر، وتدخل في نوبات من الغضب الأعمى حيث تمسكها «وتخنقها أو تصفعها»، حتى أنها حملتها في مرة من المرات ورمت بها إلى الجانب الآخر من الغرفة. تعتقد الكاتبتان سوزان موشارت وكارول ديكس بأن كثيراً من الأمهات الجديدات إن لم يكن جميعهن يشعرن بهذه النزوات، و نسبة بسيطة منهن تقوم بهذه التصرفات الشاذة فعلاً.

سنوات المراهقة: الوحوش الكاسرة

وصفت ريتش خوفها ببلاغة وصراحة نادرة من النزوات القاتلة والرحيمة في الوقت نفسه والتي جعلتها تشعر كالوحش. وكثير من البنات ترى الأمهات فجأة على أنهن متوحشات، وتصبح الأمهات متوحشات في أعين البنات عند الدخول في مرحلة المراهقة. صورت لنا المغنية والكاتبة

بيكي سيجير هذا الألم في أغنية «نغمات مختلفة» والتي كانت بصوت أم وابنتها جانباً إلى جنب. تعبر الأم في الأغنية عن ألمها النفسي من جراء تغير ابنتها المفاجئ وصدودها عنها. تقول: «تنظر إلي بنظرة باردة وخالية من التعبير تقطع قلبي من الداخل. نظرة يتخللها مسحة من الحسد. أتمنى لو كنت بجمالك، أتمنى لو كان لدي أسلوبك». وبإعجاب تقول المراهقة في الأغنية: «تتعامل مع العالم أفضل مني بكثير، إنها تعرف أشياء لن أتعلمها في حياتي». وبالنسبة للبنت أيضاً فإن الأغنية تبين إلحاح البنت وطلبها بأن تتوقف أمها عن معاملتها على أنها طفلة، وشوقها بأن تتحرر من أمها التي (تريد الإمساك بها والإبقاء عليها والتحكم بحياتها). ويظهر إعجاب الأم من خلال تذكرها لأمها: «أحياناً أتمنى أن تكون أمي مازالت موجودة، كانت بغاية الرقة اللطف».

تكلمت مع بيكي سيجير عن القصة وراء الأغنية فقالت بأنها كتبت الأغنية عندما كانت ابنتها في سن المراهقة. ولم تؤسس الأغنية بناءً على علاقتهما فقط ولكن أيضاً بناء على مقابلات أجرتها مع أربعة من صديقات ابنتها وأمهاتهن. ووجدت سيجير بأن المقابلات كانت منيرة ومأساوية. من الواضح بأن كل واحدة كانت تحب الأخرى لكن لم تعرف أي منهما كيفية التواصل بهذا الحب. وبالفعل فإن كل البنات التي أجرت معهن الحوار استخدمن الكلمات نفسها: «أمي بقرة» «أمي سيئة». علقت سيجير بأن كل البنات استخدمن الكلمات نفسها لأن شعور معاناتهن واحد.

وقد عززت هذه الفكرة من خلال حوار دار بينها وبين ابنتها خلال ذاك الوقت المؤلم فقد سألت سيجير ابنتها كيتي مباشرة: «كيتي، هل تحبينني؟» فأجابت ابنتها: «من غير المفروض أن أحب أمي». فسألت سيجير: «هل

تحبين أم شارلوت؟» فأجابت كيتي بنعم. «هل تحبين أم سارة؟» فأجابت البنت بنعم. ومرت سيجير بالسؤال على كل أسماء صديقاتها، وأحبت كيتي كل أمهات صديقاتها. وفي النهاية قالت كيتي: «لكن كل صديقاتي يحبوك». لم تكن المشكلة بسبب شخصية الأم ولكن بسبب العلاقة مع ابنتها المراهقة.

نهاية القصة خلف هذه الأغنية حادة ومؤثرة. فبعد ما ألفت سيجير كلمات هذه الأغنية طلبت من ابنتها تسجيل الأغنية معها. وذهلت عندما قالت ابنتها: «لن أقوم بغناء هذه الأغنية». فقالت سيجير: «لكني كتبتها من أجلي وأجلك». فقالت كيتي:«لكنك لم تسأليني أبداً». أدركت الأم أن ابنتها على صواب، وأن مقاومتها عكست التحول في العلاقة التي تم تصويرها في الأغنية. قد سجلت سيجير الكثير من الأغاني في الماضي بدون سؤال ابنتها. وكتابتها لهذه الأغنية لم يَعْنِ فقط أنها حاولت أن تعكس وجهة نظر ابنتها بل أنها ألفت أغنية عما يدور في دماغ ابنتها أيضاً. لكن كيتي أصرت على رأيها، واضطرت سيجير أن تبحث عن فتاة أخرى لتغني الجزء الخاص بكيتي في الأغنية. قد كان على سيجير العمل بكثافة حتى استطاعت أن تصل إلى النتيجة التي أرادتها. وعندما انتهت من تسجيل الأغنية تتذكر سيجير بأن كيتي كانت في الأستوديو لغناء أغنيات أخرى. فقال واحد من إخوة كيتي لسيجير بأنه عندما سمع تسجيل أغنية «نغمات مختلفة» من قبل الفتاة البديلة، اقترب من كيتي وقال لها «كان يمكنك غناء هذه الأغنية بشكل أفضل». وأن كيتي تبسمت له وقالت: «أدري».

كم هي واضحة هذه النهاية. ولو أن كيتي كانت قد غضبت من قوة وسيطرة أمها عليها فإن رفضها لتسجيل الأغنية أعطاها قوة فوق قوة

أمها، لتسبب لها خيبة الأمل وتجعلها مضطرة للعمل لساعات أطول. لكن كان هناك أيضاً نداء واضحٌ في رفضها، فقد كان يعني ضمنياً: «لا تستطيعين إجباري على عمل كل ما تريدينه. أنا لست امتداداً لك». وهذه الرسالة لم تكن خفية على أمها. وتمامًا كما كتبت لي الكثير من النساء عن أمهاتهن:«أنا أبكي وأنا أكتب هذه الرسالة». فإن سيجير قالت عندما كانت تخبريني عن تاريخ هذه الأغنية بأن هذه الأغنية تجعلها تبكي كل ما سمعتها. وبعد سبعة عشر عامًا غنت كيتي وأمها في ألبوم قمن بتسجيله باسم «أيها الحب نادني». تقول سيجير: «أنا أحب الغناء مع كيتي، يا لها من متعة عندما تجتمع أصواتنا».

وهنا مصدر آخر لتشجيع الأم التي تتعرض للنقد المتطرف من قبل ابنتها. علقت امرأة عن سبب علاقتها الجيدة مع أمها من خلال بريد إلكتروني فقالت: «سبب من الأسباب الذي يجعل من علاقتي مع أمي سهلة للغاية هو أنه لم تضع نفسها على منصة فوقي. بل بالعكس فقط كنت أستهزئ بها عندما كنت صغيرة. (إنني أندم على ما فعلت وأشعر بالسوء تجاه تصرفاتي). لم يكن علي إدراك أن أمي لم تكن مثالية أو أن معرفتها ليس لها حد. لكن مع أبي كانت الحال مختلفة. وباللحظة التي أدركت أن أبي كان غير معصوم غضبت كثيرًا منه لعدة سنين. لذا فإن علاقتك ستتحسن مع ابنتك كلما تقدمت في السن والانتقاد الذي تتلقيه الآن منها ربما سيكون الأساس لهذا التحسن.

عندما ترقصين

من بين الشكاوى التي غنتها كيتي في أغنية سيجير «نغمات مختلفة» هي «أن أمها تريد التحكم في حياتها» تسأل: «لماذا لا تستطيع أمي تركي وشأني؟»

والسبب في عدم ترك الأم لابنتها المراهقة هو السبب نفسه في مقاومة الفتاة المراهقة لأمها. إنه منع الأم للبنت من فعل ما تريد. وفي كثير من الحالات فإن ما تود البنت فعله يكون غير حكيم ـ إذا لم يكن خطيراً ـ من وجهة نظر أمها. لكن أحياناً تشعر البنت بأن أمها تود الإمساك بها بطريقة غير ضرورية. قالت امرأة إنها لما وصلت إلى المرحلة الثانوية وأصبحت أطول من معظم الأولاد في فصلها أعطتها أمها نصيحة فقالت: «اثني ركبتيك قليلا يا عزيزتي عندما ترقصين بجانب ولد». وهذا قد يبدو معقولا من وجهة نظر الأم إذا وضعنا في الاعتبار بأن على البنت الزواج بمن هو أطول منها. إن على البنت الطويلة إخفاء طولها وإلا فإنها لن تحظ بالرجل المناسب. لكن من الصعب إخفاء الطول بعض الشيء. إن صورة البنت الطويلة التي تحاول ثني ركبتيها حتى تبدو أقصر هو مماثل جسديًا للطرق التي حاولت بها بعض البنات القطع من أنفسهن حتى يصبحن بالحجم المناسب بناءً على وصية أو رغبة الأم.

قال الشاعر اللبناني خليل جبران في كتاب «النبي» إن الحب يكون «للنمو» ويكون أيضاً «للجز والتقليم من النفس» وبمعنى آخر فإن الحب يعطي ويأخذ. إنه يجعلك أغنى مما كنت عليه في السابق، لكنه أيضاً يجعلك أفقر. كان شعر جبران يعكس حباً رومانسياً، لكن الشيء نفسه ينطبق على الحب بين الأم وابنتها. وبمثالية عالية فإن الأم تختار التبادل وتؤمن بأن ما تمنحه (متمثل بالجز من نفسها) سيفوق ما سوف تجنيه (نموها). إن البنت مثلاً لا تمتلك أي ذاكرة لمرحلة ما قبل ولادتها لذا فهي لا تقدر كيفية ولادتها وعطاء أمها أو (الجز والتقليم) من نفسها. وبالمقابل فإن الأطفال لا يختارون الخسارة أو الكسب في حياتهم، لذا فإنه

من المحتمل جداً أن يشعروا أن وجود أمهاتهم فقط يخدم نموهم ـ أن تعطيهم الأشياء وتشجعهم ـ وليس لأن تقلم منهم وأن تمسك بقبضتها عليهم. وبالرغم من ذلك فإنه مهما شجعت الأم ابنتها لتحلق عاليًا فإنها ستجد طريقة لتسحبها للأسفل.. إلى الأرض.

كومة من: «ماذا لو»

كتبت الطبيبة النفسية جانا مالاميد سميث في كتابها «السحر القوي» عن أساليب جوهرية يقوم بها الأطفال بالجز والتقليم من أمهم: فعندما يكون للمرأة طفل صغير فهي محكوم عليها للأبد بالقلق المضاعف على سلامة طفلها. توضح سميث أنه بسبب الخوف الدائم من فقدان الطفل أو حصول أي مكروه له فإن الأم تصبح رهينة للنصيب. كما تصبح أيضًا رهينة للرجل إذا كانت تعتمد عليه في الدعم المالي.

إنه عرض لا ينتهي من نصائح الخبراء الذين يخبرونها بصراحة وعلى نحو خفي بأنها سوف تؤذي هذا الطفل ما لم تتبع نصائحهم المتغيرة. وللبائعين الذين يقولون لها إنه ليس عليها فقط شراء كل هذه الكتب بل أيضًا عدد لا يحصى من كراسي الأطفال الخاصة بالسيارة وأجهزة مراقبة الطفل حتى تبقيه آمنا.

إن هذه المخاوف المطبوعة في أذهاننا هي نتيجة لحياتنا العصرية، لكن الخوف ليس جديدًا. صادفت وصفًا لهذا في رواية كتبت بقلم كاتبة يونانية عصرية تدعى ليليكا في العشرينات. وهنا ترجمتي لتعبير ليليكا عن خوفها على سلامة طفلها الصغير:

«ما كنت أشعر به كان يسمى «بالأمومة». إنه الحب العصيب، الصراع الدائم الذي أشعر به تجاه صغيري بطرس. في كل مكان، في أي مكان أذهب فإن أفكاري في مكان آخر. إنها مع طفلي، إنني أرتعد عندما يكون الجو باردًا أو عندما يخرج. أخاف أن يقع، أخاف أن يتعسر هضمه إذا أكل قليلاً من الحلوى. كومة من احتمالات «ماذا لو» تدفعني إلى طريق الجنون».

في الرواية كانت الأم لا تخضع فقط لهذا الرابط العاطفي لكن أيضًا لرابط أكثر حقيقة وهو أن:عليها الإبقاء على وظيفتين مختلفتين من أجل أن تستطيع العناية بطفلها ماديًا. وأن هذه الحاجة هي التي تجعلها مرتبطة بموطنها الفقير اليونان وتمنعها من السفر إلى باريس المدينة العالمية التي عاشت بها سابقًا.

الراعية

كتبت كثير من النساء عن مخاوفهن تجاه العناية بأطفالهم. وبالرغم من حبهن الشديد لهم إلا أن العناية بالطفل ستمنع تطوير الموهبة والإبداع. ونتيجة مماثلة «للجز والتقليم» تحدث عندما يكون على المرأة ترك مهنتها حتى يتسنى لها العناية بوالديها المسنين. قال العديد من النساء بأن تعاسة أمهاتهن نبعت من تخليهن عن الدراسة أو العمل بسبب مرض الأم مثلاً حيث كان عليها العودة إلى المنزل للعناية بها. مثلاً أخبرتني إحدى النساء هذه القصة حتى تبين لماذا كانت تشعر دائمًا بخيبة الأمل: حصلت أمها على بعثة ودرست في جامعة جويلارد لعزف البيانو، ثم اضطرت للعودة للبيت لتعتني بأمها «الجدة» التي أصيبت بمرض عضال. وكانت هذه هي النهاية، لم تعرف أبدًا أين من الممكن أن يصل بها الطريق لو أنها استطاعت إكمال الدراسة.

في الرواية والفيلم «الماء بدلاً من الشوكولا» كانت الفكرة الأساسية للرواية هي الابنة التي تكرس حياتها للعناية بأمها. وقد دارت الرواية في القرن الماضي في المكسيك. وفي المقابل أخبرتني كثير من النساء أنه من المتوقع منها أَنْ تضع طموحاتها جانبًا حتى يتسنى لها العناية بأمها المسنة. واحدة منهن تسمى إيديث وهي في السبعينات من عمرها الآن، إيديث تقول بأنها قد تلقت ضربة قوية وهي صغيرة عندما اضطرت أن تعتني بأمها تماماً كما أنه تم اختيار أمها للعناية بالعائلة من قبل. سلكت إيديث مساراً مهنياً في أَحَد برامج الثانوية العامة بينما أخذت أختها التي صنفت على أنها ذكية مسارًا أكاديميًا وأكملت دراستها الجامعية. حاولت إيديث أن تتخلص من هذا المصير مع زوجها وولديها الذكيين. وعندما أصبحت في الثلاثين من العمر قامت بالانتقال إلى ولاية كاليفورنيا، الأرض التي تعد بالبدايات الجديدة دائمًا. وهناك بدأت مشاعرها وإمكانياتها بالظهور. وبتشجيع من زوجها قامت بالتسجيل في إحدى الكليات القريبة وشعرت بالسعادة الغامرة والمفاجأة بسبب أدائها الجيد في الدراسة. لكن كل شيء تغير بشكل سريع بعدما قرر والداها الانتقال إلى كاليفورنيا. وبالرغم من أن أمها لم تقل أبدًا إن عليها ترك الكلية والصديقات أو أخذ دور الراعي الذي يعتني بها، إلا أنها كانت تقول جملاً كهذه: «لا يمكنك أن تثق بالغريب.» و» لماذا يضيع الناس وقتهم مع الأصدقاء عندما يكون لديهم عائلة.» فهمت إيديث رسالة أمها فبدأت بإمضاء وقت أقل مع صديقاتها وأكثر مع أمها وتركت الكلية، وأصبحت العلاقة بينها وبين أمها علاقة «جز وتقليم».

تعمل شانون في عمل حكومي جيد، لكنها تتساءل كيف كان لحياتها أن تكون لو أن أمها قد أخبرتها عن المكالمة التي تلقتها. درست شانون

الصحافة في الكلية وقد كان هدفها أن تجد عملاً في إحدى محطات المذياع أو التلفاز. عاشت مع والدها بعد التخرج وتقدمت بطلب وظيفة لكل المحطات التي تعرفها. وبعد إرسالها طلبات غير محدودة وانتظارها شهورًا طويلة، تقدمت بطلب الوظيفة الحكومية وبدأت بالعمل في واشنطن دي سي. وحتى عندها كانت مازالت ترسل الطلبات للمحطات. وبعد ستة شهور من هذا الروتين كانت تتحدث إلى أمها عبر الهاتف عندما قالت أمها: «آه.. لقد نسيت أن أخبرك أنه من عدة أشهر تقريبًا اتصلت إحدى محطات المذياع في بافالو، وقالوا إنهم يحبون أن تعملي معهم، وأنك تحملين المميزات التي يبحثون عنها. لكني أخبرتهم بأنك قد بدأت العمل في مهنة أخرى». هل كان هذا تصرفاً بريئًا أم محسوبًا؟ ألم تعلم أم شانون بأن ابنتها مازالت تتشوق إلى العمل الصحفي؟ أو أنها كانت تعلم ولم تهتم بما أنها اعتقدت بأن العمل الحكومي كان فرصة أفضل؟ مهما كان حافز أمها فقد تساءلت شانون دائمًا ما إن كانت حياتها ستكون مختلفة لو أن أمها كانت قد أخبرتها بالمكالمة. ومن وجهة نظر شانون فإن هذا يقع تحت «الجز والتقليم».

إن هناك جانبًا آخر للقصة من المحتمل أن يحمل تلميحًا لكيفية التعامل مع مواقف محبطة كهذه. لقد شعرت شانون بالإحباط الشديد عندما أخبرتها أمها عن الفرصة الضائعة، لكنها لم تقل شيئاً لأن الوقت كان متأخرًا لفعل أي شيء مختلف. ولم تكن شانون من النوع الذي تناقش أمها بصراحة. وتخيل شعور شانون عندما تكررت الحادثة بعد ذلك بشهور قليلة. ومرة أخرى ذكرت أم شانون أن محطة مذياع بافالو قد اتصلوا وأخبروها عن وظيفة شاغرة، وأنها تصرفت معهم بنفس الطريقة الأولى. حتى أنها انتظرت مدة طويلة قبل أن تخبر شانون بالمكالمة الثانية.

لو أن شانون قد عبرت لأمها عن خيبة أملها بتصرفها في المرة الأولى، أو أنها أصرت على أن تعطيها أمها الرسالة حالما تتلقاها، أو أنها أخبرت المحطة بالاتصال بشانون على رقمها الآخر فإنها ربما تكون قد حصلت على الوظيفة التي كانت تتمناها والتي درست من أجلها.

المتنافسون الأقرباء

ليس هناك سبب يجعلنا نعتقد أن أم شانون تحمل في قلبها شيئاً آخر غير الحب ومصلحة ابنتها. (بالرغم من أننا نستطيع أن نتجادل في أنه ما إن يتلقى أحدنا مكالمة لشخص آخر، فإنه علينا أن نترك الكلام والإجابة للشخص المعني). وهناك حالات كثيرة يكون فيها التأثير المؤذي نتيجة النية الحسنة.

مثلاً، نجمة المجالي طالبة في جامعة جورج تاون تحضر رسالة الدكتوراه. كان على نجمة المجالي حضور موعد أخير لتقديم رسالة الدكتوراه وقد كانت وقتها تعبة للغاية، أحست نجمة أنها لم تقدم أفضل ما عندها بسبب أنها لم تنل أكثر من ساعتي نوم في الليلة السابقة. والسبب في عدم نومها هو اتصال أمها من بلدها الأصلي «عمان» في الثالثة صباحًا حسب وقت واشنطن دي سي. وبالرغم من أن نجمة عادة ما تكون يقظة في هذا الوقت، إلا أنها قد أوت إلى الفراش باكرًا هذه الليلة حتى تتأكد من حصولها على الراحة والقدر الكافي من النوم لهذا الموعد الحاسم. لقد كان وقع هذه المكالمة قويًا ومتعبًا، لكن نجمة لم تكن غاضبة لأنها عرفت بأن نوايا أمها كانت طيبة. وقد أخبرتني نجمة فيما بعد عبر البريد الإلكتروني أنها كانت فرحة بسعادة أمها عند حصول ابنتها على درجة

الدكتوراه. (بل في الحقيقة قد أخبرتها أمها أنها قد نذرت بذبح بقرة عند عودة ابنتها للوطن وتوزيع اللحم على الفقراء).

لكن هناك بالفعل أوقات تتمنى فيها الأم بأن تقف أمام ابنتها وتعيق طريقها من باب روح المنافسة. تكتب تشيسلر مثلاً أنها في كل مرة تصدر كتاباً جديداً كانت أمها تردد الملاحظة الآتية: «لا تعتقدي أنك متميزة أستطيع أنا أن أكتب كتاباً أيضاً».!! وفي بعض الظروف فإن المنافسة يمكنها أن تكون حافزًا. تحاول إلهامك حتى تحاول بجهد أكبر، لكنها أيضًا من الممكن أن تخلق شعورًا لقطع الطريق على المتنافس المقابل، لأنه من المحتوم أن تشعر الأم وابنتها بالمنافسة تجاه بعضهن، مهما كان مقدار الحب بينهن. إنه أيضاً من المحتوم أن تكون هناك أوقات تشعر فيها الأم أو البنت أنها تود إعاقة نجاح الأخرى.

المنافسة بين الأم وابنتها تنتج أيضاً من رغبة كل منهما بتقليد الأخرى. مثلاً قال والد آن سيكستون لها ولأخواتها: «إن البنت ليست ببراعة الأم». شعرت آن بالمنافسة تنطلق منها مباشرة ومن أمها أيضاً. عندما كانت آن سيكستون في مرحلة الثانوية لم تصدق أمها أنها كانت قد كتبت القصائد التي تدعي أنها كتبتها بنفسها. وحتى تتأكد الأم من أن ابنتها لم تنتحل كلمات مؤلف آخر قامت بإرسال قصائد آن إلى بروفيسور جامعة تعرفه. ووفقاً لكاتبة سيرتها دايان ميديلبروك فإن سيكستون تقبلت وفهمت شكوك أمها «كدليل على الرغبة في البقاء في المرتبة العليا».

هذا المثال دليل واضح وجلي على شعور المنافسة. لكن في بعض الأوقات فإن التعليقات التافهة من الممكن أن تؤدي إلى المنافسة أيضاً. طالبة أخرى

أخبرتني بأنها تتصلب من الغضب عندما تعيد عليها أمها أشياء تعرفها. مثلاً أثناء مكالمة هاتفية تخبرني أمي أنه من الضروري علي أخذ علاجي لأنني أعاني من السعال، بينما كنت قد أخذت علاجي وهي تعرف ذلك، وتعلم أيضاً أنني لا أتهاون بأشياء كهذه. وعوضًا على هذا فإني أبادر في إخبارها بكل الأشياء التي أتوقع أنها سوف تعلق عليها في الحوار. يتحول الحوار في النهاية إلى منافسة حول من يستطيع فعل الشيء المناسب أولا.

من الصعب تمييز المنافسة من الحسد حيث إنها مشاعر تشعر بها الأم والبنت تجاه بعضهما. وعندما كانت تتحدث أمي عن أمها كانت غالبًا ما تذكر أن أمها كانت تغار من صديقاتها، وقد كان هذا مثيرًا للسخرية بدرجة كبيرة لأني لطالما شعرت أَنَّ أمي كانت تغار من صديقاتي، خصوصًا إذا فضلت أن أمضي وقتي معهم بدلاً من إمضائي الوقت معها. وقصة معينة تأتي للذاكرة بعد تخرجي من الجامعة، فقد كنت أدرس اللغة الإنجليزية في اليونان وعدت للوطن في زيارة بعد سنة من الغياب. و كان في استقبالي في مطار كينيدي والديّ وأربع من صديقاتي. ثلاث من الصديقات موسيقيات وقد أعددن أغنية صغيرة للترحيب بقدومي. وهذا المشهد هو واحد من المشاهد العزيزة في نفسي. فبينما كنت أمشي أنا ووالدي في الصالة الدولية رأيت صديقاتي وقد تجمعن، وكل منهن تحمل آلة العزف الخاصة بها. وهناك بين زحام المطار الدولي قامت صديقاتي بعزف أغنية الترحيب أمام الجميع. لم أشعر في حياتي بحب ودلال وتكريم كهذا. لكن لحظة الفخر قد شوهت من قبل غضب أمي المحجوب والمريض بالرغم من أنها لم ترني منذ مدة طويلة. فأعطيتها القليل من الانتباه وركزت انتباهي على أصدقائي. ولم تظهر أي إعجاب أو متعة لعرضهم. علقت

فقط بانزعاج ظاهر بأن هؤلاء الصغار السن يشتتون انتباهي. وقد كانت متلهفة لأخذي للمنزل، المكان الذي شعرت أني أنتمي إليه. بدت وكأنها تشعر بأن كل دقيقة ركزت فيها على أصدقائي كانت مسروقة منها. وكل قطرة حب شعرت بها تجاههن كانت من الكأس الذي ينتمي لها.

المنافسة على الجائزة الكبيرة: الأب

وفي النهاية تركت صديقاتي في المطار وذهبت للمنزل مع والديّ. لكن عند وصولنا كان هناك الخصم القوي الذي لا تستطيع أمي انتزاعي منه وهو والدي. في الفصل الثالث وصفت الرابط الذي يربط بين البنت ووالدها وتحيز الاثنين لبعضهم حيث تكون الأم مستبعدة من هذا الرابط. ومن وجهة نظر أخرى فهذا نوع من المنافسة بين الأم وابنتها. وقد لاحظت وجهة النظر هذه وأنا أراقب عائلة أخرى غير عائلتي.

كنت أنا وزوجي ضيوف عشاء في منزل أحد الأصدقاء. وبينما كنا نجلس حول المائدة بعد انتهاء العشاء دخلت ابنتهم المراهقة إلى الغرفة واتجهت مباشرة إلى والدها. وبينما كانت تقف إلى جانبه كانت تقلب شعره بحنان، واستمرت بتمرير أصابعها على رأسه حتى بعدما توقعت أنها سوف تتوقف وتنصرف. وبينما كنت أراقب شعرت بالغيرة دفاعًا عن صديقتي - «أمها». وفجأة أحسست بضربة داخل أحشائي وفهمت لماذا اغتاظت أمي دائمًا من حبي لأبي. إنه من الصعب مشاهدة أي تحيز أو صفوف تتكون ضدك بين الأخوات أو بين الأب وابنه والتي بدورها تقوم باستبعادك للخارج. لكن بالتأكيد هناك ألم خاص تشعر به المرأة عندما ترى الرجل الذي تحب يتلقى اهتماماً وافراً من امرأة يبادلها هو نفس

الاهتمـام بالمقابـل، حتـى وإن كانت هذه المـرأة الصـغيرة ابنتها. (يكون الموقف مؤلماً أكثر لو أن للرجل بنتًا من زواج سابق).

هنا تدخل الأم وابنتها في منافسة عدائية لا يمكن تجنبها. وكما ذكرت تشيسلر ببساطة:

«إن التركيز الزائد على مظهر الأنثى وتفضيل الذكر المسن للمرأة الصغيرة والرعب الناتج عن الهرم. كلها تؤدي إلى المنافسة النسائية المستمرة على الجائزة الكبرى».

وهنا أيضًا قصة من الذاكرة: فبعد ما انتهى زواجي الأول كنت مخطوبة لرجل يدعى توم وبينما كنت أزور والدي لاحظت وجود زهور جميلة في مزهرية على الطاولة. وعندما سألت أمي أجابت بأن والدي قد أحضرها. فسألت إن كان هناك مناسبة؟ فأجابت أمي: «لا.. فقط لأنه يحبني». ثم زادت : «أخبري توم بهذا». وأراهن لو سئلت أمي عن سبب كلماتها لكانت أجابت بأنها تريد أن تعامل ابنتها معاملة حسنة. لكن نبرة صوتها كانت قد سربت أثراً للنصر العسكري، وأنها قد فازت بحب أبي في هذه الجولة.

إن المنافسة على اهتمام الأب هي أكثر المنافسات حدة لكنها ليست الوحيدة في علاقة الأم بابنتها. أخبرتني امرأة تدعى جاكي عن تجربة مرت بها عندما كانت في الأربعين من العمر، وكيف أن هذه التجربة ذكرتها بسنوات مراهقتها. تقول إنه بينما كانت تتمشى مع ابنتها في أحد شوارع المدينة بدأت أمها بالشكوى، وأنه ليس من العدل أن ابنتها جميلة وأن الجميع ينظرون للبنت، ولا ينظر إليها أحد. تعبر المرأة عن تصرف

أمها وتقول «كانت تفعل هذا وأنا في الخامسة عشر من عمري». وتقول «إنه ليس من العدل». وهذا جعلني أشعر بالذنب، كنت أود أن أظهر جميلة لكني لم أكن أريد أن أحط من قدرها. ولاحقًا بدأت بالتفكير أنه ربما علي تجاهلها، لأني لم أكن أريد التوقف عن الظهور جميلة، وهو الشيء ذاته الذي أرادت مني فعله.

كنت على وشك تصنيف هذا في خانة المنافسة بين فتيات الخامسة عشر وبين النساء المنتصفات في العمر، والصغيرة دائمًا تفوز. لكني أجبرت نفسي على التوقف، فليس للبنات دائمًا اليد العليا في هذه المنافسة. فتمامًا كما تظهر الأم الناجحة والبارعة على أنها منافسة رهيبة؛ فإن الأم الجميلة تظهر أيضاً بالمظهر نفسه. فعندما يعلق أحدهم قائلاً: «يا إلهي أكاد أجزم بأنكن أخوات». فإن الأم تشعر بالإطراء من أنها تبدو صغيرة كابنتها. لكن البنت تشعر بالانزعاج من أنها قد تبدو كبيرة في السن كأمها. قامت صحفية بعمل مقابلة مع الروائية ماريلين روبنسون، ولاحظت الصحفية خلال استراق النظر إلى ثلاجة الروائية الصورة الفوتوغرافية المعلقة عليها. لقد كانت صورة أمها وهي تظهر بتوازن مغالى فيه. علقت روبنسون «يجب أن تكون هناك مجموعة مساندة للأمهات الملكيات». بالفعل فإن الأم تستطيع تحقيق النقاط في مجال الجمال الجسدي بغض النظر عما إذا كان سيحكم عليها بطريقة ملكية أم لا.

كتبت المؤرخة الأسترالية جيل كير كووي في مذكراتها «الطريق من كوريان» بأنها تساءلت بصوت عالٍ: كيف لامرأة مثل أمي لديها كاحلان نحيفان ورائعان أن تنتج بنتاً مثلي حيث يبدو كاحلاي مع آخر النهار منتفخين ومتورمين».

تراث الحياة

لقد شعرت جاكي أن أمها أرادت منها التوقف عن كونها جميلة وفي الحقيقة تشعر كثير من النساء بأن الأمهات تقص من أجنحة البنات حتى يجعلنهن أكثر تقبلاً من المجتمع. مثلاً تقول امرأة: «لقد كانت أمي مهتمة جدًا بكيفية تقديمي للمجتمع وتعرفي عليه. ولم تود أبدًا أن أكون ناجحة مهنيًا». وفي النهاية هذه هي حال المجتمع حيث يعلم الآباء ـ والأمهات على الأخص ـ أولادهم كل التقاليد الخاصة بالمجموعة التي ينتمون لها، وكل ما هو متوقع منهم إنجازه. وأحيانًا تتحول مسؤولية الأم في تعليم ابنتها إلى إساءة جسدية. فمثلاً خلال القرون التي كان يسمح بها بربط أرجل الفتيات الصغار في الصين ـ عندما كانت القدم الصغيرة من أوجه الجمال ـ كانت الأمهات هي التي تقوم بربط أرجل بناتهن. عملية في غاية التعذيب والألم حيث تتطلب كسر أصابع وقوس القدم ولف القدم الصغيرة تدريجيًا بضمادات أضيق وأضيق، والذي بدوره يقطع الدورة الدموية ويؤدي إلى التهابات خطيرة. إننا لا نشك في أن دوافع تلك الأمهات تنبع من رغبتهن في التأكد والتأمين على مستقبل بناتهن بغض النظر عن أي تعذيب جسدي أو إعاقة تعرضن لها. هذه الأنواع من التعذيب كانت ضرورية لتأمين الزوج، والزواج كان الطريقة الوحيدة لتأمين المال للمرأة وأولادها.

دافع الأم يمكن أن ينتج من التماثل أيضاً كما وضحت سابقا. فنوال نور طبيبة سودانية أنشأت وأدارت المركز الصحي للمرأة الأفريقية في برمنجهام ومستشفى نسائيًا في بوستن. قامت الطبيبة بمعالجة نساء تعرضن في صغرهم لعملية ختان أفريقية متوحشة ورؤيتهن. وتقابلت مع مريضة أرادت تعريض ابنتها لنفس العملية. حاولت الدكتورة نور أن تثنيها

عن رأيها. قالت خلال المقابلة إنه من بين الجدال الطويل بينها وبين الأم، فإن واحدا من أكثر تفسيرات الأم المدهشة والصعبة هو قولها: «أريدها أن تبدو مثلي».

لو كان تربيط الأقدام والختان الأفريقي نوعًا من أنواع الإساءة الجسدية المقبولة في بعض المجتمعات التي تعامل معاملة طبيعية. فإن هناك حالات تسببت فيها الأمهات بإساءات جسدية غير مقبولة من المجتمع. بالرغم من أن التعبير «العنف المنزلي» غالبًا ما يشير إلى عنف الرجل تجاه المرأة وضربه لها، إلا أنني تحدثت لكثير من النساء التي تعرضن للضرب والتعذيب من قبل أمهاتهن وكان هذا فوق توقعاتي.

لنرى مثلاً قصة جيسيكا التي تعرضت للضرب من قبل أمها في صغرها. كانت أمها توقظها من النوم في منتصف الليل وتجبرها على الجلوس بسكون وصمت على أرض غرفة المعيشة تنعتها بالألفاظ الجارحة وترمي عليها الأشياء التي من حولها. كانت أمها تصرخ بوجهها وتقول: «إنها قبيحة ومتوحشة كوالدك» (الوالد كان قد طلق الأم من مدة) وأنها كاذبة وقد خدعت الناس على أنها طيبة وفاتنة، بينما وحدها أمها التي تعرف حقيقتها. وفي الوقت نفسه تقوم برمي أي شيء على الطفلة تقع يدها عليه مثل ملاعق وأدوات مطبخ، حتى وإن أصابتها هذه الأدوات ونزفت الطفلة من جراء ذلك، فقد كانت ممنوعة من الحراك أو الحديث. وبالنظر إلى قوة هذه الأم وسيطرتها على الطفلة فإن تعبير «العنف المنزلي» يبدو غير مناسب، ووفقًا لسلوك وتصرفات هذه الأم فإن تعبير «الإرهاب المنزلي» يبدو أكثر ملائمة.

جانب آخر لهذه الرواية التي تفطر القلوب والذي تحدثت عنه معظم الفتيات في روايات كهذه هو حكم أم جيسكا القاسي على شخصها. فإن أثر وصدى هذا الحكم يعم ويستمر في حياة البنت لفترة طويلة حتى بعد بلوغها سن الرشد، وحتى بعدما لا يبقى للأم أي سيطرة عليها.

وصفت الصحفية دايان ريم في مذكرتها «البحث عن صوتي» حياتها مع أم تضربها باستمرار، وكيف أن حكم أمها عليها كان جزءًا من ميراثها. وكان قد تم ضرب ريم «بحزام، وبملعقة مطبخ حديدية، وبملعقة مطبخ خشبية، وبحذاء قاسٍ». وكل هذه الأسلحة جاهزة ومتوفرة في المنزل خصوصًا المطبخ. وتتذكر أنها أبقت على هذا الضرب سرًّا لأنها شعرت: «بأنها كانت تستحق هذه المعاملة السيئة لأنها قد خيبت أمل والديها... لم يكن لدي أي طريقة أستطيع فصل نفسي عن الشعور بكره نفسي لأنني قد أسأت التصرف». وبعد سنوات طويلة وبينما كانت تعاني ريم في زواجها ووظيفتها وجدت أنها كانت معذبة بسبب كرهها لنفسها. كما لو أنه كان شريطًا يدور في رأسها «إنك لا تستطيعين إنجاز شيء. أنت فاشلة» وخلال المعالجة النفسية فهمت دايان ريم: «إن معظم هذا الحوار له علاقة بأمي. فكلما سمحت لنفسي بإدراك كم تضاربت مشاعري تجاهها زاد غضبي وحزني. بالكاد أستطيع أن أذكرها بدون أن أشعر بالبؤس والعداوة، كما لو أنها ما تزال جزءًا نشيطًا ودائمًا في حياتي. في الحقيقة مضى على موت أمي أكثر من أربعين سنة الآن لكن الشعور بالعجز الذي شعرت به في طفولتي كلما كنت حولها كان مازال موجوداً معي إلى هذا اليوم».

إن حكم الأم السيئ على ابنتها بالفشل ينطبع في نفسية البنت كما تنطبع و تتحجر بصمة ورقة الشجر على الحجر.

قالت امرأة أخرى تدعى أليس إن اتهامات أمها لها قد بقيت معها طيلة سنين طويلة حتى بعد موت أمها. وبينما كانت أمها تضربها كانت تصرخ في وجهها وتقول: «إن هناك شيئاً خطأ فيك!» هذه الكلمات كانت تظهر مراراً وتكراراً في حياتها. حتى أنها كلما كانت تتشاجر مع زوجها كانت تقول لنفسها: «إن أمي على حق. لابد أن يكون هناك شيء خاطئ فِيَّ.

لكن ربما أكثرها تدميراً كان قوة أمها على تقرير كيف تعيش أليس حياتها وسيطرتها على ذاكرتها. وهذا يظهر واضحًا في تجربة مرت بها أليس، ومازالت هذه التجربة حية في ذاكرتها رغم مرور عقدين عليها. كان لأليس رحلة عمل في المدينة التي تعيش فيها أمها مع زوجها الثاني. وبما أنها قريبة قررت أليس أن تزور أمها. كانت أمها وزوجها في رحلة وسيكون وصولهم للمدينة بعد وصول أليس بيوم. لذا فقد قامت أليس بالترتيب مع زوج أمها بأن تأخذ مفتاح البيت من الجيران وتنام في جناح الضيوف. وتستطيع بهذا مفاجأة أمها في الصباح التالي، بدا كل شيء مناسباً حتى وكتبت أليس في بريد إلكتروني تقول:

«في الصباح التالي وعندما صحوت بدأت أشعر بشعور أستطيع وصفه على أنه «نوبة قلق شديد». بدأت بفرك وتنظيف دورة المياه التي استخدمتها، أكلت القليل من طعام الفطور وبدأت بفرك المطبخ. أصبت بالهلع من أن كل شيء لم يكن نظيفا على الوجه المطلوب وأنني سأقع في ورطة مع أمي. اتصلت بأختي وأنا أبكي فقامت بتهدئتي. وصلوا في ذلك المساء وقد كانت أمي في غاية السعادة لرؤيتي. أخبرتها بأنني قد تناولت وجباتي في الخارج، وأنني قد تناولت القليل من طعام الإفطار. ونظفت المكان من ورائي وقمت بفرك دورات المياه. ولم أستطيع التوقف عن البكاء تمامًا كما أفعل الآن خلال كتابتي لهذه السطور».

عندما حدث هذا لم تكن أليس طفلة صغيرة تحت رحمة أمها وعرضه لغضبها غير المتوقع وغير المنطقي. لكن شعور البؤس والعجز والغضب بقي في داخلها مستعدًا للانفجار. إن للقصة نهاية سعيدة تقريبًا فقد قالت لها أمها بأن البيت يبدو جميلاً، وأنه ليس عليها الشعور بالقلق. ثم أضافت أمها «إنني أتفهم قلقك فقد كنت شديدة في هذا الموضوع عندما كنت صغيرة». إن ذكرى هذا الاعتراف ثمينة جدًا لأليس التي فسرت:

«خلال علاقتي مع أمي في الصغر كانت هذه هي المرة الوحيدة التي أرى فيها أمي تتفهم شيئًا ما من وجهة نظري. حتى أنها لمحت كم كانت تصرفاتها في هذا الموضوع مدمرة لي. واستخدمت تعبيرًا لطيفاً يشير إلى أنها قد خرجت عن السيطرة كثيرًا. لقد عنى هذا لي الشيء الكثير، وصدمت من شعوري بأني تمنيت لو أني سمعت كلماتها قبل ذلك بسنين عندما كنت صغيرة، وعندما كنت أحاول مناقشتها في هذه الأمور كانت تنتهي دائمًا بنفيها وبقولها: إنني اختلقت هذه القصص لتسلية طبيبتي النفسية. وبالرغم من أن الوقت قد انتهى لكلينا فقد عنى كلامها لي الشيء الكثير لأنني لطالما شككت في ذكرياتي وفهمي».

في النهاية ربما تكون هذه هي النقطة الحاسمة والحساسة لقوة الوالدين على الطفل. ليس فقط بخلق العالم الذي يعيش فيه الطفل بل بإدارة كيفية الفهم والتعامل مع هذا العالم. وكما هي الإساءة الجسدية للطفل مريعة وسيئة؛ فإن الأسوأ والأكثر تدميرًا هو التشكيك في فهم الطفل وإدراكه. إن قلبي ينفطر عندما أفكر بأليس (ودينا وجيسيكا) وكم عانت هذه الفتيات في الطفولة. لكن حتى بالنسبة لنساء مثلي لم يتعرضن لأي اعتداء جسدي، فإن الرغبة في الحصول على أم تتفهم وجهة نظرك وتعترف بعالمك الذي تعيشين فيه هو رغبة حقيقية ومؤثر جداً.

وأحد جوانب هذه القصة العجيبة أن أليس كانت في نهاية الثلاثينيات عندما حدث هذا، وفي قرابة الستينيات عندما بكت وهي تقص علي القصة.إن علاقتنا بأمهاتنا تستمر حتى بعد انتهاء حياتهن ومهما بلغنا من العمر.

بعد ذهابها

كنت أستمع إلى أختين تتحدثان عن الطرق المؤلمة التي استخدمتها أمهن المتوفاة وكيف أنها لم تتعافَ منها أبدًا، قالت واحدة: «من الأفضل ألا نتكلم بهذا الشكل. فإنها سوف تسمعنا وتغضب». قالت الأخرى: «إنها ميتة». فردت الأخت: «هذا ما تعتقدينه!»

إن موت الأم بالنسبة لكثير من النساء خسارة لا يتعافى منها الإنسان أبدًا.و الكثير منهن عبر بجمل كهذه: «إنني أشتاق لها كل يوم». و«بالرغم من مرور عقد كامل على موت أمي إلا أنني أشعر أنه مات مني جزء ذاك اليوم». وقالت أخرى: «أصعب شيء في طلاقي كان عدم وجود أمي إلى جانبي للتحدث معي». وعلقت أخرى بعد ممات أمها أنها شعرت كما لو أن السماء ملبدة بالغيوم وأنها لن تصفى أبدًا. إن وجود الأمهات الثابت هو شعور مريح بالنسبة لكثير من النساء، وصفت امرأة أمها المتوفاة على أنها ملاك يحميها: «أحياناً عندما يكون سير الأمور سيئاً وصعباً، فأنا أتخيل أنها بجانبي، لأنها كانت الشخص الوحيد الذي اعتمدت عليه... الشخص الذي قلق من أجلي وحماني ووبخني، والذي اعتقد بأني أستحق دائماً الأفضل». والتعليق الأكثر غرابة سمعته من مصورة قالت: «لسنوات طويلة بعد موت أمي وإحراق جثتها، أبقيت علبة صغيرة تحوي رفاتها وكنت أخذ

هذه العلبة إلى كل مكان أذهب إليه». إن امتلاك جزء صغير من أمها أينما ذهبت كان شيئاً ثميناً للغاية. لأنه يذكرها بالرحلات التي قامت بها مع أمها والوقت الثمين الذي أمضته معها.

بالنسبة لكثير من النساء فإن الإبقاء على أمهاتهن قريبات هو شعور روحي أكثر من حرفي. كانت دونا برازيل المسؤولة عن إدارة حملة آل غور الانتخابية لعام 2000م تجري مقابلة في عام 2004م بعد نشر مذكراتها «الطبخ بالزيت». جرت المقابلة حول حياتها في مجتمع أسود وفقير وكيف أنها تطورت لتشغل أعلى المناصب في الحزب الديمقراطي. طلبت منها الصحفية أن تتحدث عن كيفية تعاملها وتحدثها لمجموعة كبيرة من الصحفيين وأعضاء نادي «الجريديرون» خارج واشنطن. أجابت برازيل: «عندما أشعر بالارتباك والقلق أنظر من حولي في الغرفة وأبحث عن أمي التي توفت في عام 1988م».

obeikan.com